الفصل العاشر

القاهرة.. طابع الأجانب

يجيء الأجانب فى الصف الثانى بعد أسرة محمد على، فإنهم، وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة، ولأنفسهم - مغانم كثيرة - فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر والتقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار الإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد - لبلى الساتر الخشبى ذو الزخارف الدقيقة فى مسجد المارداني وتحول إلى تراب.

وهذا بارون آخر - البارون إمبان - كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة، انشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفًا.

وقد انفق البارون إمبان أرباحه من شركة الترام فى بناء قصر له على الطراز الهندى، يعد من أغرب الأبنية فى القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مادورا فى الهند ببرجه الشاهق المخروطى وتماثيله على هيئة الفيلة، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى فى بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا فى النظام الاقتصادى لمصر قبل الثورة مرتعًا خصبًا لهم، لم يكن بطبيعة الحال محبوبًا لأن تشبهه بالأمراء لم يأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون إمبان أحيانًا قليلة، فقد سبق له فى الريفييرا فى فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام

الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسمًا مستعارًا، فدعاه البارون إلى العشاء فى قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من أصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية، أو من ارتستات الكباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شىء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل أسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداده لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدته له هذه الاستراحة.

ولكن ما بقى واضحًا من نفوذ الأجانب هى هذه المطاعم والفنادق ذات الأسماء الإنجليزية ففى مطعم «سان جيمس» - الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر الأحمر - يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك إلى الماضى، إنها من جريدة «الإجبشيان جازيت» فى عام ١٨٩٥ تقول:

«سيطبق المحل فى مكانه الجديد إلى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تمامًا كما هو متبع فى حى وست إند بلندن فى المناطق المجاورة للنوادى الراقية الخاصة».

واختفت التقاليد الأنجلوسكسونية تمامًا من فندق شبرد. اللهم إلا اسمه، ويرجع عهدها إلى العصر الفيكتورى حين أنشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الإسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببواخرهم فى السويس. لقد كان فندق شبرد القديم معقلا من معاقل رجال الإمبراطورية العظام، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل

ما يدور فى أرجائه حول أثاثه الخيزرانى ونخيلاته المغروزة فى قصاريها. فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثًا فى القاعة المصرية بالأزياء الغريبة المبتدعة، وفى نصف الليل.

«أعاد صوت تردد فى القاعة بعض الضيوف المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجًا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة فى صالة الرقص، وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها إلى الحاضرين جميعا. واطلقت حمامات تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنها لم تكن باللينة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كرته داخل القاعة وأصابت وجه الجنرال ماكلارن. وكان وقتًا عصيبًا سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيرًا انتهى كل شىء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب.. والسعادة»

أما عن أثر فرنسا فإن لغتها كانت - حتى فى ظل الحماية البريطانية - أكثر تداولا من اللغة الانجليزية، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى أنشأه نابليون. وهناك جامعة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز.

وتتناثر فى القاهرة بنسيونات متواضعة للأجانب الوافدين من وسط أوروبا، كصديقى يانكو، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم، ويقطن فى شقة تطل على وزارة الأوقاف. إنه يضع على عينيه نظارة سوداء، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشترى حاجته من سوق الخضار المسقوف فى باب اللوق أو مزيدًا من الزبيب من بقال يونانى قريب من داره، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو، وله

أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو «الأحداث المشردون» وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألته عن الطابع المصرى فى الرسم أجابنى «ماذا تقول؟ ليس عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن فى الإسكندرية فى أواخر حكم الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرنًا - باستثناء العهد الفاطمى - قد أخذوا الآن يعودون إليه بحماس كبير. وخديجة رياض - حفيدة أحمد شوقى الشاعر - تعرض لوحات تجريدية ولكنى أفضل شغلها فى الحلى إنه بديع، ورءوف عبد المجيد يحيل أكواخ الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندى هى عفت ناجى، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى فى الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز السحر - هذا العنصر الدائم فى حياة مصر - السحر

الأصيل الشرانى، لا السحر المدعى طلبًا للتصاحب ولبريق التظاهر، ثم تحيلها إلى رسوم، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهما مطبان خطران على الفنان، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات خشبية بارزة، فلها أبعاد ثلاثة، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت»

أعود إلى صديقى يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير الفوتوغرافى، وقد ظل مرة ساهرًا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشىء من المرارة «الزهور؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين أشياء توضع فى سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار، وترسل لحفل زفاف»!

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه الزمن، فقد تلقيت أخيرًا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ.